الاتفاق الاصطلاحي ودوره في انتظام المعنى في لغة الشعر الصوفي -ابن الفارض أنموذجا-

د. سعد بولنوار
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة عمار ثليجي - الأغواط - الجزائر

إن الشعر الصوفي بما يحمله من ملامح وخصائص تميزه عن باقي الأصناف الشعرية الأخرى، يعد مدونة خصبة للبحث النقدي والتحليل الدلالي واللساني والأسلوبي، وهذا من أجل ما يحمله هذا النوع الشعري من اصطلاحات تجعله في أحايين كثيرة لغة أخرى مغايرة لما هو متعارف عليه في النظم الشعري العادي، ففيه منظومة خاصة من المصطلحات لا يعرفها إلا المتبحر في غياهب التصوف والزهد وهذه اللغة الخاصة تكاد تكون دائرة مغلقة من حيث التواصل، و"المعرفة الصوفية كما هو معروف عنها أنها معرفة ذوقية باطنية، لذا جاءت المصطلحات التي وضعها أصحابها تتلاءم وتلك المعرفة، وهو ما أدى إلى ظهور كم كبير من المصطلحات الخاصة بهم، فجاءت بعيدة كل البعد عن تلك المصطلحات المتداولة في علوم الفقه والتفسير واللغة والأدب وغيرها من العلوم الأخرى"[1]، والذين يتواصلون بها هم المتصوفة الذين حافظوا على التصوف باعتباره حركة شاملة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذاً "فالتصوف –من هذا المنظور- يشكل (في إطار المعارف الإنسانية ولاسيما اللغوية) اتجاهاً فنياً فكرياً ومذهباً اعتقادياً يميزه من غيره لدى كثير من الناس شرقاً وغرباً، قديماً وحديثاً. فالتصوف بهذا المفهوم وبفضل إيمان أصحابه به استطاع أن يقدم نفسه للبشرية كبنية معرفية من نوعٍ ما؛ فضلاً عن كونه نزعة روحانية، مما جعله يظهر بقوة في حركة الصراع الروحي والفكري الديني معاً ولاسيما عند العرب والمسلمين"[2]ذلك أننا "إذا قرأنا أدب الصوفية شعرا ونثرا، وبخاصة شعر ابن الفارض وكلام محي الدين بن عربي في الفتوحات المكية وجدنا رمزاً غريبا ونمطا عجيبا، وبعداً عن التصريح وإيثارا للتلويح، واعتماداً على الإشارة، وعلاقات خفية في التجوز بالكلام، ودرجات بعيدة بين المعاني الحقيقية والمعاني اللزومية لا يكاد يفهمها فاهم، ولا يصل إلى جوهرها عالم أو حالم"[3]، ومن هذا التصور "فإن المصطلح الصوفي لا يمكن أن يدرك معناه المحدد إلا من له ثقافة صوفية واسعة، أما بالنسبة للقارئ العادي فإنه لا يستطيع أن يدرك جزءا من مدلول المصطلح، ذلك لأن المصطلح قد انبتّ تماما عن المدلول اللغوي العام"[4]، وفي الحقيقة هذا لم يتأتى في زمن قصير وإنما حدث هذا الزخم الاصطلاحي الصوفي بفعل التراكم المعرفي تاريخياً وبصورة تدريجية، والمتتبع للمسار الطويل الذي نمت في ظله لغة الصوفية ليلحظ أن هناك خطوات تتّبع وتتنامى وأساليب تحتذى وتتسامى، من شيخ إلى شيخ ومن شاعر إلى شاعر آخر، فالذي يأخذه المتأخر من المتقدم لابد وأن يستعمل وفق ما جعل له وإضافة له ما يقتضيه من ملحقات سياقية فرضتها طبيعة التواصل في هذا النطاق الخاص

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبهذا يحصل تطور الرمز المتداول، يعلل محمد عبد المنعم خفاجي هذا المسعى بقوله: "و سبب ذلك هو عجز الصوفيين في طول الأزمان عن إيجاد لغة للحب الإلهي تستقل عن لغة الحب الحسي كل الاستقلال"[5]، بينما نجد أن الشعراني يوضح "السبب الذي من أجله استخدم الصوفية إشاراتهم فيقول: إن الفقيه إذا لم يوفق يقال أنه أخطأ، أما الصوفي فإنه عندما لا يوفق يقال أنه كفر، لذلك كان لزاما على الصوفية استخدام الإشارات حتى لا يشتد إنكار العامة لهم"[6]، ويبين حسن الشرقاوي أن "الاختلاف الوحيد بين ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم وبين ألفاظ ومصطلحات العلوم الأخرى، هي أن هذه الألفاظ لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف"[7]، ثم أن الإبداع الصوفي يعد انعكاسات للتجلي، "والتجلي هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب. ولذلك تم وسم هذا التلقي الصوفي، سواء للنص اللغوي أو الوجودي، بالتلقي المكاشَف. وفي مثل هذا التلقي ليس العارف من يتعرف على النص ويكشف أسراره بمقتضى نظره وتفكره، وإنما النص هو الذي يتعرف إليه وينجلي له فتحا وهبة من الله، فتتعطل القوى الفاهمة لتثار القوى القابلة"[8]، ولكي نفهم هذا البعد الاصطلاحي للتجربة الصوفية بوضوح دعونا نطرح الأسئلة التالية: ماهو هذا الاصطلاح الصوفي؟ وكيف نشأ؟ وماهي خصائصه في شعر ابن الفارض؟ إذ أن التعامل مع مثل هذه المدونة تستدعي انشغالا مهما: "ماذا يكون صنيع القارئ أمام الإفصاح الذي يمارسه الفعل اللغوي موسوما بالذوق الصوفي، سوى تحييد العقل لحظة التماهي مع الإشراق الصوفي، بعد أن يكون قد حسم أمره بخيارين: إما أن أتصوف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمعانقة الحقيقة الذوقية لهذا المبحث، وإما أن أتحرى الحقيقة بعقل موضوعي"[9]، لأنه من الواضح إذا ما "كان التشكل الدلالي للنص يشترط إشراك القارئ الذي يقوم بتحقيق البنية التي تقدم له من أجل الكشف عن المعنى، فإننا لا يجب أن ننسى أن موقع القارئ هو دائما داخل النص، وعلى النص أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الموقع إذا كان يريد أن يراهن على جهة نظر متحركة للقارئ"[10]، وهو الأمر الذي يبدو معقولا إلى حد كبير.

فللإجابة عن هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف ماهو الاصطلاح الصوفي أولاً، فالاصطلاح عند أبي البقاء الكفوي في الكليات: "هو اتفاق القوم على وضع الشيء، وقيل: إخراج الشيء عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر لبيان المراد واصطلاح التخاطب هو عرف اللغة"[11] وفي معجم لاروس نرى أن الرمز هو "إشارة حسية مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس"[12]، بمعنى "أن اللغة في دلالتها الوضعية في اصطلاح مخصوص وضع لمعنى معين، فجاء الرمز أو المجاز ليخرج الكلمة أو اللفظ من هذا الوضع بمعنى آخر، يقصده الأديب أو الشاعر بهدف التأثير والجمال"[13]، ويقول عاطف جوده نصر في كتابه الرمز الشعري عند الصوفية، وهو في هذا يسمي الاصطلاح بالرمز:"فهذه الروح الكلية الحية، لا تفتأ تكشف عن ذاتها في الواقع المتطور، متجلية بوصفها وصيدا تنحل فيه كل التعارضات، وبالغة أقصى مراحل تطورها الحي في الوعي الإنساني الرامز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن قلب هذه العلاقة الخصبة بين الشعور الإنساني والوجود المطلق وهو يفض نفسه في التعيينات، تتركب الأشكال الرمزية في تراث الثقافة الإنسانية، وتحيل هذه الأشكال إلى رغبة الوعي الإنساني في التعبير عن الحقيقة ولواقع"[14]، ومع ذلك بالإمكان أن نقول، مؤقتاً، بأن الرمز (الصوفي) "دليل لا-تحكمي، لكن ذلك إنما يعني أن بين مختلف مستوياته، وبين أجزائه كذلك، علاقة منتظمة، وهذا الوفاق الداخلي أيضا يصير شكلا جديدا للدلالة، هو الدلالة اللازمة: تحيا بالفن ولا ترجمة لها بأي لفظ كان"[15]، أي هو منفلت في الغالب من إمكان التحديد.

أشكال الرمز الصوفي:

وهذا الرمز لا تتأتى دراسته إلا في ضوء تحليل مستويات الرمز المختلفة، يقول عاطف جوده نصر: "إن دراسة الرمز الشعري في أدب الصوفية لا تتأتى إلا بتحليل مستويات الرمز المختلفة، وتبدو هذه الدراسة ضرورة ملحة في إطار منهج ينظر إلى منجزات الثقافة الإنسانية، ويتأمل ما أبدعه نشاط الروح الخلاق عبر مراحل التطور التاريخي، بوصفه رموزا محملة بالدلالات"[16]، لأن مراد الصوفية هو الوصول إلى الحقيقة وهذا الوصول يكون عن طريق اتخاذ وسائل معينة يقول وفيق سليطين في هذا الإطار: "ومن الواضح في هذا المجال أن غاية التجربة الصوفية لا تتحقق إلا بهدم الاغتراب ومجاوزته وهذه الرغبة في جواز الزمن المشار إليه هي التي تدفع التجربة في مسارها، وهي التي تفسر لنا أهمية وجود المطية وكثرة استدعائها والتعويل عليها، باعتبار الوظيفة التي يمكن أن تضطلع بها في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عبور مفازة الزمن"[17]، وهم يوظفون في ذلك معادلات موضوعية فنية تساعدهم في التعبير عن أغراضهم، فـ"الرمزية في الغزليات والخمريات ليست بالغريبة على الشعر الصوفي في الإسلام، بل إنها لم تبد في غير التصوف بمثل هذا الغنى"[18]، ولذلك فـ"من الملاحظ في الفكر الصوفي وجود ثنائية حادة (مقابلة) أقرب ما تكون إلى الفكرة ونقيضها: كالصحو والسكر والغيب والشهادة والمريد والشيخ والفناء والبقاء والفرق والجمع، أما ألفاظ الحب والعشق والوله والهيام، وما يدور في فلكها، فهي مستوحاة من شعراء الحب العذري، فهم القدوة وموضع الاستشهاد لوصف ما يعتلج قلوبهم من ألم لفراق الحبيب"[19]، فالأشكال التي يتم بها التعبير تتنوع وتتعدد تبعاً للغرض والمقصد.

عوالم اللفظ من البداية إلى الغاية:

تميز ابن الفارض بشعر جميل في البنية والدلالة، فقد "انتهج ابن الفارض في شعره من حيث الشكل، الطابع القديم الذي لم يفرّط فيه بعمود الشعر التقليدي، ولم يتجه للبديع اتجاها مسرفا كما هي الحال في عصره. أما من حيث المضمون، فقد غلب على شعره طابع التصوف، وإن ألبس معانيه أثوابا من المعاني التقليدية في الغزل والنسيب والخمريات وما شابهها. وقد تحدّث عنه ابن خلكان قائلا: له ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق ظريف، ينحو منحى طريقة الفقراء"[20].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهناك استعمالات لبعض الألفاظ ودلالتها في بيان ما يخص المقصد الصوفي، فمثلا "أنه يذكر الخيام البيض كقول ابن الفرض:

و هل رقصت بالمأزمَيْن[21] قلائص وهل للقباب البيض فيها تدافع

ويشير الشارح إلى أنه يكني بالمأزمين عن العقل والحس... والقلائص كناية عن النفوس الإنسانية في حال سلوكها في طريق الله تعالى وهي حاملة أحمال التكاليف الشرعية، وكنى بالقباب عن العقول البشرية التي هي فوق مطايا النفوس الإنسانية وهي حاجبة لها عن استيفاء المدارك العرفانية، وقوله البيض لأنها من عالم الأنوار العلوية، وقوله تدافع لأن تلك العقول تتدافع وينكر بعضها على بعض ولا يخفى ما يرمز إليه اللون الأبيض من معنى الطهر والعفاف"[22]، واللون على تنوعه له دلالات خاصة في الشعر الصوفي.

ثم هو ممن ركبوا رمز الخمرة والسكر، "ولعل الأبيات التي قالها في وصف حبيبه، وما صاغها في تعبيرات حسية، واختارها من أوصاف الخمرة، وكؤوسها، ومجالسها هي خير ما يعبر عن ذلك.

كما يقول في خمريته:

شَرِبنا عَلى ذِكرِ الحَبيب مُدامَةً سَكِرنا بها مِن قَبلِ أن يُخلَقَ الكَرمُ

لَها البَدرُ كَأسٌ وهي شَمسٌ يديرُها هِلالٌ وكَم يبدو إذا مُزِجَت نَجمُ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَلَولا شَذاها مااهتَدَيتُ لِحانِها وَلَولا سَناها ماتَصَوّرَها الوَهمُ

وَلَم يُبقِ مِنها الدَّهر غَيرَ حُشاشَةٍ كَأنَّ خَفاها في صُدورِ النُّهى كتمُ

وَقامَت بِهَا الأشياء ثَمَّ لِحِكمَةٍ بها احتجَبَت عَن كُلَّ مَن لا لَهُ فَهمُ

ففي هذه الوجدانيات تتردد كثير من معاني الصوفية للسابقين، ففيه عشق رابعة العدوية، ومعاني الحلاج، وغيره ممن اعتقدوا بالحلول، ومن نادى بوحدة الوجود، ومن قال بالإشراق، وشبه الحقيقة الأزلية بالأنوار التي تتكشّف له بعد رياضة روحية، وتخلّص من ظلم المادة والحسّ"[23]، حتى ليخيّل للقارئ، أنه والشاعر قد أفِقا عنان السماء.

يقول ابن الفارض:[24]

كأني هلال الشك لولا تأوّهي خفِيتٌ فلم تُهد العيون لرؤيتي

فجسمي وقلبي مستحيل وواجب وخدي مندوب لجائز عبرتي

وقالوا جرت حمراً دموعك قلت عن أمور جرت في كثرة الشوق قلّت

يبدو أن الهلال رمز للدلالة به على ما بعد عالم الملكوت ذلك أن "عالم الملك من السماء الدنيا إلى الأرض، وعالم الملكوت هو من السماء الأولى إلى السماء السابعة وعالم الجبروت هو من السماء السابعة إلى الكرسي وعالم الأمر هو من الكرسي إلى العرش إلى ماوراء"[25]، ولكن الهلال ينقصه الكمال فهو ليس بدراً، إذن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالنور الذي يشع به نور متضائل، والمقصود بالعيون هنا "عين الحياة (و) هو باطن الاسم الحي الذي تحقق به شرب من ماء عين الحياة الذي شربه، لا يموت أبدا لكونه حيا بحياة الحق، وكل حي في العالم يحيى بحياة هذا الإنسان لكون حياته حياة حق"[26]، فمن النقص الذي يعتري الهلال لم يستطع الأحياء شرب نور الحقيقة من محلها الأرفع.

ويبدو أنه يقصد العرش بلفظ الجسم، "فالعرش الجسماني الذي يناظر في الغنوص الصوفي الفلك الأطلس، تكوّن من الماء الذي طغى عليه وحفظه من تحته وهذا الماء هو المعبر عنه"[27]، ثم أن "الجسد: هو ما ظهر من الأرواح ويمثل في جسم ناري أو نوري"[28]، وفي المرحلة الثانية "هو يستعمل مصطلحي (المستحيل) و(الواجب) الفلسفيتين لوصف جسمه وقلبه في الحب"[29]،و "المستحيل الشيء الذي انقلب عن حاله التي كان عليها، والواجب هنا بمعنى الساقط"[30]، ثم يمكن أن تكون "العبرة: ما يعبر به من ظواهر أحوال الناس في الخير والشر، وماجرى عليهم في الدنيا، وما انتقلوا عليه منها إلى الآخرة ودار الجزاء إلى ما يؤول إليه حال المعتبر وإلى بواطن الأمور وخفياتها... ويدخل فيها العبور من رؤية الحكمة في ظواهر الخليقة إلى رؤية الحكيم، ومن ظاهر الوجود إلى باطنه، حتى يرى الحق وصفاته في كل شيء"[31].

ورمزية الألوان رمزية لا تأتى إلا بفهم ما تدل عليه عند جمهور المتصوفة، تقول نور سلمان: "و الأحمر من شهوة دنيوية، وهذا ما كان يقصده ابن الفرض

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في استعماله اللون الأحمر في هذا البيت إذ قال: أيا زاجرا حمر الأوارك نارك الموارك من أكوارها كالأريكة. وكثيراً ما يستعمل الشاعر الصوفي اللون الأحمر كرمز للشهوة الدنيوية"[32]، وهذا هو المقصود.

إحالات الهامش:

[1] وذناني بوداود- المختصر في المصطلحات الصوفية،مخبر اللغة العربية مطبعة بن سالم، ط1،الأغواط (الجزائر)، 2009،ص: 01.

[2] د.حسين جمعة -جمالية التصوف مفهوماً ولغةً، مجلة الموقف الأدبي - مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق - العدد 364 آب2001 .

[3]محمد عبد المنعم خفاجي- الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب للطباعة، القاهرة، ص: 181.

[4] عبد الرزاق الكاشاني- معجم اصطلاحات الصوفية، تح: عبد العال شاهين، دار المنار، ط1، القاهرة، 1992، ص: 12.

[5] محمد عبد المنعم خفاجي- الأدب في التراث الصوفي، ص: 182.

[6] حسن الشرقاوي- معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1987، ص: 12.

[7] نفس المرجع، ص: 07.

[8] محمد بالأشهب- مداخلة: التلقي المكاشف وحدوده شروطه، : التجربة الصوفية في الأدب العربي، ندوة تكريمية للأستاذ محمد السرغيني التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس ، أيام 26 - 27 -28 ماي 1994.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[9] زرارقة بولفعة- جمالية النص الصوفي في نماذج شعرية مختارة، رسالة ماجستير،المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2008،ص:20.

[10] فولفانغ إيزر- الإدراك والتمثل وتشكل الذات القارئة، تر: سعيد بنكراد، مجلة علامات، عدد 17، المغرب، 2002.

[11] أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي- الكليات، تح، عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998، ص: 129.

[12] Grand larousse Encyclopedique ,Paris,1964,,Art Symbole,p :360.

[13] عبد الله الركيبي- الشعر الديني الجزائري الحديث،سلسلة الدراسات الكبرى ،ط 1، سنة 1981 ، ص: 347.

[14] عاطف جوده نصر- الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس/الكندي، ط1، بيروت، 1978، ص: 18.

[15] تزفيتان تودوروف- نظريات في الرمز، تر: محمد الزكراوي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2012، ص: 510.

[16] نفس المرجع، ص: 18.

[17] وفيق سُليطين - موتيف الظعن في قصيدة التصّوف، مجلة الموقف الأدبي- مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق- العدد 309، شباط "رمضان"، 1997.

[18] محمد عبد المنعم خفاجي- الأدب في التراث الصوفي، ص: 183.

[19] حلمي عبد الله حسين عدوي- ألفاظ المتصوفة (دراسة دلالية في أعمال ابن عربي النثرية والشعرية)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، د ت ط، الجامعة الأردنية، ص: 21.

[20] محمد علي أبوالحسني- سلطان العاشقين ابن الفارض وخصائصه الشعرية، إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)، السنة الأولى، العدد الثالث، خريف 1390 ش / أيلول 2011.

[21] "رقصت: أسرعت، المأزمان: مضيقان بين جبلين.." نقلاً عن ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، ص: 168.

[22] نور سلمان- معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، أطروحة أستاذ علوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1954، ص: 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[23] محمد علي أبو الحسني- سلطان العاشقين ابن الفارض وخصائصه الشعرية، إضاءات نقدية (فصلية محكّمة).

[24] عمر بن الفارض- ديوان الإمام العارف بالله، المكتبة الحسينية المصرية، ط1، مصر، 1913، ص: 19.

[25] أيمن حمدي- قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص: 70.

[26] عبد الرزاق الكاشاني- معجم اصطلاحات الصوفية، ص: 151.

[27] عاطف جوده نصر- الرمز الشعري عند الصوفية، ص: 275.

[28] عبد الرزاق الكاشاني- معجم اصطلاحات الصوفية، ص: 65.

[29] وحيد بهمردي- اللغة الصوفية ومصطلحها في شعر ابن الفارض، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1986، ص: 49.

[30] عمر بن الفارض- ديوان الإمام العارف بالله، ص: 19.

[31] عبد الرزاق الكاشاني- معجم اصطلاحات الصوفية، ص: 148.

[32] نور سلمان- معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، ص: 76.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com